أؤمن بالدين

عرفتُ فيمن عرفتُ من أصناف الناس اربعةً تجري امورُهم في نفسي على غير مجاريها في انفسهم وأرى من طبيعتهم موضعَ الغفلة فيما يرونه أو يحسبونه موضعَ السَّداد :

(فالاول) رجلٌ ملحدٌ اديبٌ معنيّ بجمع الكتب يتعلق بكل نفيس منها ، وهو يزعم أنهُ تأمَّل الاديانَ فلم يجد طائلاً في شيء منها ، وأن له في كل دين طَعنةً على ريبة ونقداً على مسئلة وثانيةً على أوّلةٍ[1] ، وانهُ تبدَّل الدينَ بالخُلُق فما خسر شيئاً وربح الحقيقة ، ثم يَحتذو بعدُ على هذا الحَذو كما يفعل الملحدون في صفة انفسهم وهم دائماً لا يأخذون من الكلام الا بمعلٍ اليد ان اذ من العجيب أن لا تقع لهم الكلمةُ الصحيحةُ المفردة

هذا الذي خرج من الاديان ومن نهيها وامرها الى الاخلاق وعُهَدتها وادبها ، قال لي ذات يوم وقد خُضنا في امر الكتب : اني لأمقتُ السرقةَ والغصبَ والخديعة ولا أبيح منها شيئاً ولا أُمرّها لأحد ، غير اني اذا وجدتُ كتاباً نفيساً وعجزت عنهُ ثم أمكنتني فرصة من الغفلات لم أتورّع ان أسرقهُ .... ولو غصبتُ ولو خدعتُ

قال هـذا فلم أفهم من كلمهِ شيئاً الا ان لقب (اللصّ) يكون من الشرف أحياناً بحيث يسمو كثيراً على الرجل الملحد

(والثاني) رجل متفلسف انقلبت عقيدتهُ الى زَيغٍ فلهُ رأيان في امور الحياة : واحدٌ ينزع فيه الى طبيعتهِ فيستمتع ما وجد متاعاً في حرام او حلال وفي معروف او منكر . والآخر يرجع بهِ الى ضميرهِ الانساني وما هو الا شبهُ بلهِ وعقلهِ وفلسفتهِ فيألم ويتململ إذ يرى انهُ لا يزن من لذاتهِ لا بمقادير الخير ولا بمقادير الشر وانهُ يبيح لنفسهِ ويحرّم على غيرهِ فاما الرأيُ والحق والعدل ان لا ينطلق في كل انسان تاريخهُ الوحشيُّ كما يفعل هو ليقوم النظامُ على أصولهِ وتتحقق الانسانية في أهلها ، ولو فعل الناس ذلك نوسمتهم الفلسفة لما وسعتهم الطبيعة بل هي تسرع حينئذٍ تنطلق لكل حيوان مع أكلتهِ التي يتغذى بها آكلهُ الذي يتغذى بهِ

لم أفهم من فلسفة الرجل أنهُ فيلسوف ، بل عرفت من علمه أن الرجل من الناس قد يكون سافلاً حتى من الجهة العالية فيهِ وقد يكون فاسداً حتى من بعض جهاتهِ الصالحة

(١) كناية عن التعدد وانه لا يكتفي بواحدة

صورة تمثل خرافة « بجماليون » التي بنيت عليها القصة الثانية
انظر الصفحة ٥٥
مقتطف يناير ١٩٢٩

(والثالث) رجل يزعم عند نفسه انهُ مصلح ويتولى امور الناس فيداورها ويلتمس لكل شيء ما أنْ يتسبب منهُ الى اصلاح فيهم حتى اذا وثق الناس به واستكانوا اليه وصاروا في حال السيرة وفي قياد الأمر ، صدعهم في اديانهم وأخلاقهم وركبهم بنزاعه وخرافاته وبثّ اوهامهُ في مذاهب اقدارهم وتصاريف امورهم وظن الدين كلهُ يضع في موضعها كلهُ غيرها وحسب اليوم من ايامه في عمل الدهر كاليوم من ايام الله في خلق السموات . . . . فهو يطرد الازمنة ويمحو العادات ويغيّر الطباع ويسنّ لفروع الشجرة سنّة جذورها فلا يذهب الفرع طالعاً بل يغور نازلاً ، ثم يريد ان يقيم على طريق التاريخ مجازة او قنطرة تمشي بالناس فوق التاريخ فيقطع بهم الف سنة في الف يوم وكأنهُ زاد في الطبيعة ناموس نبيه وامره . . . . انا لا أقول في مثل هذا انهُ مصلح بل اقول يا عجباً لسخرية الاقدار من القوة ، ألا يرتفع النسرُ في الجوّ الا ليبحث أين تكون الجيفة . . . .

(والرابع) ذاك الذي جعلتهُ الكتب عالماً وقسمت لهُ ما شاء ولكن الله تعالى لم يقسم لهُ شيئاً من كرم الضريبة وشرف العرق ولا أتى بمعاني الذهب في سلسلة آبائه فهو رثّة[1] لا يجيء في معاني الناس بطباعه واخلاقه الا كالثوب الخلق من فتوق ورقع ، ويلتوي عليه العلم كما تلتوي القشرةُ النضرةُ على الثمرة المرة ، فاذا كتب للناس ارتطم في طباعه ونزع الى مأخذه ويجاذبُ داخلُ نفسه وخارجها فيذهبُ ينكر ويعترض ويسفهُ ما عليه الناس من دين وخلق ويتروّى بهم في نوازيه ودواهيه ، ويردُّ كل ما في الطبيعة من الجمال وكل ما في النفس من الحق الى تأويل مادي بحت ، كأنَّ الزهرة الخارجة من الطين هي طين مثلهُ ويسقط عندهُ كلُّ ما عمل الشعاع والماء في الذرّة الازلية التي انبثقت منها النبتة فخرجت توحي عن السماء وحي النور واللون

أنا لا أفهم أن مثل هذا عالم ولكنهُ في الناس كبعض النبات في النبات يُرزق من النمو قوةً يفسد بها ما حوله، فاذا هي ظهرت فيه لم تنبه على قيمته بأكثر مما تنبه الناس الى وجوب اقتلاعه واستئصاله . . . .

***

لا ثقة لي بمتخلق لا دين لهُ فان الخُلق يصلهُ بحظ نفسه اكثر مما يصله بواجبات الناس ، ولا بفيلسوف ملحد لان الفلسفة تمزجهُ بالمادة اكثر مما تمزجهُ بالانسانية ، ولا بمصلح ينسلخ من الدين لان اصلاحهُ صورٌ من غروره ، ولا بعالم جاحد لان علمه كهندسة الشوكة كلها من أجل آخرها . . . . أولئك لا يدرون انهم من هذا العالم في حدود

(١) اي من البقايا التي لا خير فيها

أغراضهم الصغيرة الفانية اذ كان كل منهم يتناول الكون من حيث يجبُ هو لا من حيث يجبُ عليهِ ، ثم يفسر الاشياء في جزء منها لا في مجموعها ، ويعتبر الزمن عمراً كعمر الفرد وهو تاريخ لا يموتُ وينظُر الى الغاية من الوجود كأنها داخلة في الحد مع انها لو حُدّت لبطلت ان تكون غاية

كل منهم صحيح في ذاتهِ فاسدٌ بموضعهِ من اغراضهِ أو من اغراضنا ، وما اشبههم بالأشجار في المقابر لا تجد لها في المقبرة ما تجد لها في الحديقة ، كأنها لما قامت في موضع الموت قامت حية ولكن ماتت روحُ الحديقة فيها

لا تسمو حياة الفرد الاّ اذا كان جزءاً من كلٍّ ، ولا يجتمع الكلُّ الاّ اذا كان تامًّا فيما هو كلٌّ بهِ ، فالسبيل ان يُدفَع الفرد أبداً الى خارج حدودهِ الفانية الصغيرة . وفكرة الكل هذه لا يصوّرها ولا يستوفي معانيها الاّ الدينُ الصحيح إذ هو خروجٌ بالفرد من شهواتهِ التي تفصلهُ من غيرهِ الى واجباتهِ التي تصلهُ بغيرهِ ، وانتزاعٌ لهُ من ذاتيتهِ الى انسانيتهِ ، ودفعٌ بالانسانية نفسها الى الكل الذي هو أسمى . فكان الايمان في حقيقتهِ إن هو الاّ دُرْبةٌ لهذا الانسان على الدخول في اللانهاية فهو من أجل ذلك يقضي على الفرد أن يتسع ويمتدَّ في انسانيتهِ لا في شخصيتهِ فيتخلق بالاخلاق التي تعمُّ دون التي تخصّ . وهذه صورة صغيرة من جعل المحدود في ذاتهِ أعظم من ذاتهِ ودفع ما ينتهي في سبيل ما لا ينتهي

فاذا عمل الفرد على ان يُقفل حدودهُ عليهِ ويستغلقَ بها ويمتنع من وراثها ، صار كالقلعة المحصَّنة لا تصلح الاّ حرباً لما حولها ودفاعاً عما فيها فلن يضع هو ابرهُ الاّ على هذا المعنى ، ومن ثمَّ فلن يكون لهُ ممن يعادونهُ الاّ حكمٌ واحدٌ وهو تخريبهُ وهدمهُ واقتحامهُ . فاذا كانت الحياة غير باقية على فرد من الناس فمن الحق ان تكون هذه هي صورة الانسانية فيها ، واذا كان ذلك حقاً فالحق ولا جَرَمَ بعض المعاني التي يقوم الإلحاد عليها

***

ليس في الأرض انسان لا أجداد لهُ فمن ثمَّ ليس على الأرض انسان في نفسهِ بل انسانيةٌ فقط ، انسانيةٌ متصلةٌ مُفرَغةٌ إفراغاً ليس للفرد بينها موضعٌ لذاتهِ بل موضعهُ لاتصاله بسائرها كمنزلة الخلية الواحدة بين الملايين من الخلايا المتلازمة في جسم واحد قائم من جميعها صالح للوجود بصلاحها وفسادها معاً

أما إنها لعجيبةٌ أن تُلقيَ بسؤالين متناقضين لا يلتئمان ثم لا تجد عليهما الاجواباً واحداً لا يختلف ، سَلِ الحكمةَ : لِمَ صَلُح هذا ؟ فالجواب : ليكون شيئاً ضروريًّا في الوجود . وسلها لِمَ فسد ذاك ؟ فالجواب كذلك ليكون شيئاً ضروريًّا في الوجود . هي الحلقةُ

المفرغة لما غاب طرفاها صار كل موضع فيها طرفاً وحلت كلها وزلت كلها فليس الا النوع لا الفرد والكل لا الجزء والانسانية لا الانسان. وانما يقع كل شيء في الحياة - بل في الوجود كله - تدريجاً لتحقيق هذه الوحدة كيلا ينفصم أحد منها ، فهي ابداً ذاهبة بالجسم والعقل والمعرفة والسير من جزء الى جزء ، من الاصغر الى الصغير الى الكبير الى الأكبر الى الأوسع الى الأسمى ، لان تلك هي علامتها في حركتها وتسخيرها وهي طريقة برهانها بالنهاية على أنها لا نهاية

بيد أن خطأ الغريزة في الانسان يظهر في اعتبار الفرد نفسه كلاً تاماً وشيئاً متميزاً فلا يريد لنفسه الا أمراً تاماً ووجوداً يتميز فيه ، وبذلك يقتحم سواه ويستبيح وجوده فيقع النزاع والعدوان ويضيق بمقدار ما لا يستطيع ان يتسع لا ندفعه لكل ما حوله مردود عليه بدفع مثليه مما حوله فتتبدل صورة الانسانية في شكل دخلته التلطف من كل جهاته . وهنا موضع الدين الصحيح فما هو الا الناموس القائم من كل انسان على الواقع في ذاته والواقع في غيره ليصل بين الواقعين المختلفين بنظام مختلف متحد يكون له في النفس ما يكون لنظام المد والجزر

وبهذا كان واجباً حتماً أن تكون العقوبة جزءاً من نعيم الدين وأن يكون القيد شقاً من حرية المقيدة والا بطلت في الاعمان قوتا الجذب والدفع معاً يبطلان إحداهما لأن مداً بلا جزر هو أخش الغرق من ناحية وجزراً بلا مد هو اخش الغرق من الناحية الاخرى

ooo

تعجبني كلة في الانجيل لا أعرف احداً أحسن تأويلها وبلغ حقيقتها . قال « يجب أن تولدوا ثانية » ، ووضعها في هذا المقال هو تفسيرها فان الفرد يولد من الفرد ولكنه لا يصلح على ذلك بل يجب أن يولد في صفاته واخلاقه من المجموع الانساني لتقع الملاءمة . ثم انه من أبويه يخرج من الحيوانية بغرائزها ولن يفلح بها انساناً فيجب أن يولد مرة اخرى من جنسه الاجتماعي بغرائز مكتسبة . ثم انه يولد مهيأً للاقرار بنفسه وحدها فيجب أن يولد الثانية مهيأً لإنكارها وحدها

على هذه الأرض ، إما الإقرار بالنفس وإيثارها والاعتداء بها ومع كل ذلك الحيوانية والشيطان ، وإما إنكارها والإيثار عليها والمهاونة بها ومع كل هذه الانسانية والله

لن تطاق الحياة الا اذا تبدلت فاتخذت لها اسلوباً غير أسلوبها الآني من تركيب المادة ، وانما صراع الارض كله حول اقامة هذا الاسلوب الجديد او هدمه او ترميمه . أسلوب الاخلاق والطباع الشديدة التي لا تطيقها الحيوانية فتسميها المانية ، وتكبرها

الانسانية فتسميها الإيمان. بالأسلوب الأول تكونون بالحياة في موضعها ، وبالثاني تسمون بالحياة عن موضعها « فيجب ان تولدوا ثانية »

***

كل ما يراد به أن يسدّ في الانسانية مسدّ الدين ويغني عنه فانما هو في رأيي كطعام أهل الجحيم ، لا يطعمون فيها كما يطعمون في (نزل) لشبع وسمن بل طعاماً كما جاء في القرآن الكريم « لا يُسمِن ولا يُغني من جوع » أي لإحداث الجوع وكلبه واستمراره (١)

والطبيعة نفسها تهيئ الانسان للدين بأسلوب غريب هو هذا الحب الذي يُخلق فطرةً على انواع مختلفة متعددة حتى لا يخلو منه أحد فلا معدل عنه ولا محيص . وانما هو في مظاهره — أيا كان — دُربة للنفس الانسانية تصعد به درجات من الفضائل كالاخلاص والإيثار والاتصال الفكري والانبعاث الروحي والشوق الخيالي ونحوها مما هو في الحقيقة إيجاد للحياة النفسية في أعمالنا وفيض بالقوة الروحية على مظاهر المادة لاحداث الملامسة بين الارواح والاشياء والترابط بين الجاذب والمنجذب . وكل ذلك تهيئة للدين وعمل في النفس ليكون قائماً على اساسه في الطبيعة . فالحب دين على اسلوب خاص ضيق ولذلك يشتد فيه التعصب كما يقع في الدين من المؤمن به على وتيرة واحدة اذ لا يرضى القلب في هذا ولا هذا غير رأي واحد

فكيفما قلّبنا الحياة رأينا في كل جهة منها وجهاً من وجوه الايمان وباعثاً من بواعثه وحكمة من فلسفته ، فالمصلحون الذين يحاولون تجديد الامم بصور ملوّنة من الغرائز تطمس على الدين ، هم الذين يرجعون بهذه الامم في عاقبة الامر الى الحيوانية لانه ليس في طبيعة النفس الا شيئان : هوًى هي دائماً اعظم منه وإيمان هو دائماً اعظم منها

مصطفى صادق الرافعي

(١) انظر اعجاز هذا التركيب وكيف بدأ حين أراد وصف طعام أهل الجحيم وما هي بدار طعام بل دار عذاب فقال « لا يسمن » فيتخدع الحس فيظن أن هذا الطعام ان لم يسمن فربما ذهب بالجوع وان لم يذهب به فربما أغنى منه ولو شيئاً . فقال « ولا يغني من جوع » فيصدم الحس هذه الصدمة وينكس عليه التأثير الذي توهمه . ثم يشتد هذا التأثير ويبلغ مبلغه حين يتأمل الحس البليغ هذا التركيب الدقيق فلا يخرج له الا أن طعام هؤلاء اذا كان لا يحدث نتيجة البتة مما هو من خصائص الاطعمة لا في سمن ولا شبع ولا الغناء من جوع فما هو الا طعام منكس لايجاد الجوع واستمراره وتسميته على ذلك (طعاماً) مع أن لهذه الكلمة في النفس تكون ذلك الحل يكون اشد على النفس في العذاب وفي التهكم فتأمل كيف يكون الاعجاز

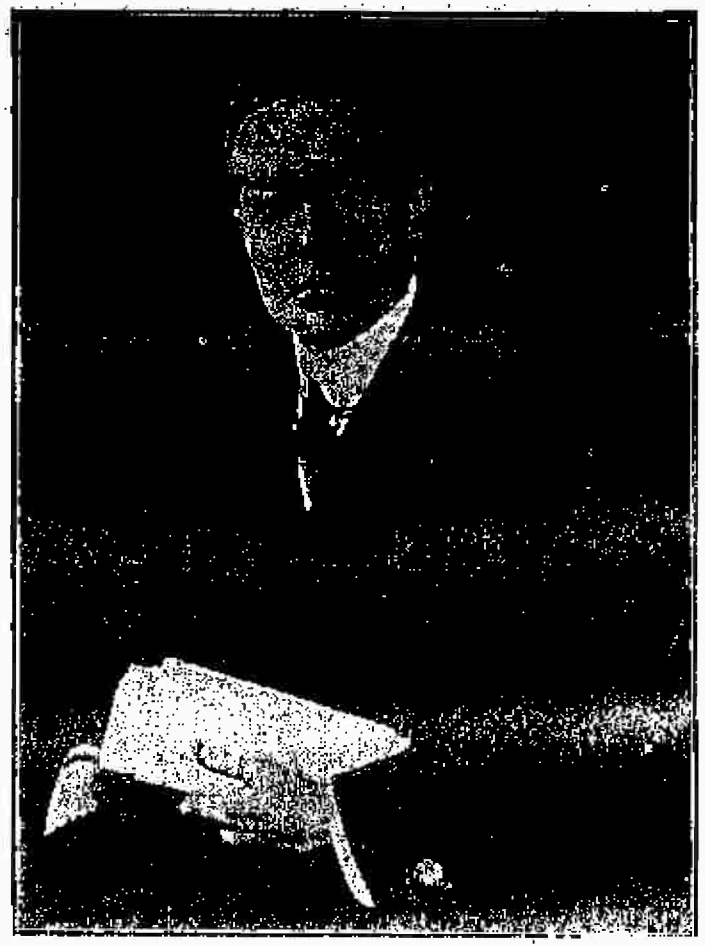

وكفلر الصغير
ضيف مصر الكريم وصاحب المبرات الوافرة للعلم والتعليم

وكفلر الكبير
الذي وهب من ماله نحو ١٣٠ مليوناً من الجنيهات
مقتطف فبراير ١٩٢٩ امام الصفحة ١٣٣